

الأوضاعُ البينية واستراتيجياتُ المفاوضاتِ\* في شخصيات رواية

"صدام الحضارات حول مصعد ساحة فيتوريو" \*\*

للكاتب الجزائري عمارة لخص

*Liminal Situations and negotiation strategy in the novel of "Clash of Civilizations around an elevator in Vittorio Square".by Amara Lakhous*

سليم حيولة\*

تاريخ النشر: 2020/06/30	تاريخ القبول: 2020/03/09	تاريخ الإرسال: 2019/11/07
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تتناول هذه الدراسة إحدى أهم الروايات الجزائرية المعاصرة للكاتب "عمارة لخص" التي صدرت في سنة 2003 ووسمها بـ "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك"، ثم أعاد كتابتها بالإيطالية، لتصدر ترجمتها الفرنسية بعنوان *Choc des civilisations pour un ascenseur Piazza Vittorio*، وهي نصّ روائي يتطرق لمسألة المهاجرين، وطبيعة تعايشهم في المجتمعات الأوروبية والغربية عموماً، الأمر الذي يجعل كتاباته صورة دقيقة لواقع المهاجرين في علاقاتها المعقدة بالآخر في عالم ما بعد الاستعمار، فهي تُبين محاولات هؤلاء المهاجرين الشرقيين والأفارقة في البلدان الأوروبية، إيجاد فضاءٍ خاص بهم، وأهم الاستراتيجيات التي يطبقونها من أجل الاندماج في المجتمعات التي يعيشون بينها، بالإضافة إلى مختلف العوائق التي يتعرّضون لها. إن الكاتب الجزائري "عمارة لخص" يكتب بالعربية والإيطالية وتترجم نصوصه إلى الفرنسية، وهذا البحث يدخل ضمن متابعة إنتاجات الكُتاب الجزائريين المعاصرين الذين يكتبون بغير اللغة العربية.

كما نُشير إلى أننا اعتمدنا في هذه الدراسة على إحدى الاستراتيجيات التي تُطبّقها ذوات

المؤلف المُرسِل : سليم حيولة [haioula@yahoo.fr](mailto:haioula@yahoo.fr)

\* - جامعة المدينة. الجزائر. البريد الإلكتروني [haioula@yahoo.fr](mailto:haioula@yahoo.fr)

ما بعد الاستعمار المهْمشة في البلدان الغربية، ونعني بها "المفاوضة على وضعهم البيئي"، تجاه "العين الشريفة" التي تُقابلهم بها الذّات الأوروبية، وهما مفهومان وضعهما التّاقّد الهندي "هومي بابا" المختصّ في الدّراسات مابعد الكولونيالية، وهذه الاستراتيجيات تهدف إلى تحقيق أكبر قدر من الاندماج في المجتمعات الغربية، والتي هي في أصلها مجتمعاتٌ هجينة، والكيفيات التي يُمكن بها تجنّب الرّفص والاستبعاد. بالإضافة إلى ذلك، فقد وظّفنا مفاهيم هومي بابا" مثل "الفضاء البيئي" و"قوة التّجاذب المؤسّساتي ومواجهته"، بالإضافة إلى فكرته الهامّة التي ضمّتها كتابه المذكور، وهي تلك المتعلقة بـ"نفي الجوهرانية والتّقاء الثّقافي" بالنّسبة لكلّ ذوات هذا العالم، لنصل في النهاية إلى تحديد الفكرة التي تُعتبر محور رواية عمارة لخصوص، والتي تتمثّل في نفي جوهرانية الشّعب الإيطالي ونقائه الثّقافي.

الكلمات المفتاحية: لخصوص- هومي بابا، المفاوضة- البينية- العين الشريفة- التّعايش -الجوهرانية- التّقاء -الهجنة.

### Abstract:

This study deals with one of the most important contemporary Algerian novels, written by Amara Lakhous, which was published in 2003 and labeled "How to Suckle from the wolf without Biting You", which was rewritten in Italian, and then published in French as: "Choc des civilizations pour un ascenseur Piazza Vittorio". It shows the issue of the coexistence of immigrants in European and Western societies, which makes his writings an accurate picture about the reality of immigrants and their relations in the post-colonial world.

They reflect the attempts of immigrants in European countries to create their own space, In order to integrate into the societies whom are living in, and the various obstacles that face them from the Europeans.

The Algerian writer "Amara Lakhous" writes in Arabic, Italian and his novels were translated into French too. This research follows the Algerian writers and contemporary novelists who write in Arabic.

In this study, we have also adopted one of the strategies pursued by the post-colonial people in Western countries, which is, the negotiation of the hybrid state, as opposed to the "evil eye" of the Western self-character. These concepts are referred from the Indian critic "Homi Baba, which are strategies that migrants use to maximize integration into Western societies, which are, at their origin, hybrid societies, and the modalities in which the rejection of these communities to foreigners can be avoided.

We have also employed the concepts of Homi Baba, such as "Liminal Spaces" and "confront the power of institutions" and ultimately to define the idea that is central to the writings of Lakhous, which represents the denial of essentialism and cultural purity as mentioned by Homi Bahba .

\*\*\* \*\*

تمهيد

إنّ الدّراسات حول الرّوائيّ الجزائريّ "عمارة لخصّ" الذي أقام بإيطاليا، ثمّ بالولايات المتّحدة الأمريكيّة قليلة جدّاً في البحوث النّقديّة المعاصرة، حيث لم يهتمّ به سوى عدد قليل من الباحثين العرب، بالرّغم من الأهمية الكبرى للقضايا التي يطرحها، فهو يعيش في المهجر وتتميّز كتاباته بطابع خاص، الأمر الذي يجعلها صورة دقيقة لواقع المهاجرين والدّوات في علاقاتها المعقّدة بالأخر في البلدان الغربيّة، فهي تُعبّر عن محاولات المهاجرين الشّرقيين إيجاداً فضاء خاصّ بهم، وأهمّ الاستراتيجيات التي يطبّقونها من أجل الاندماج في المجتمعات التي يعيشون بينها، ومختلف العوائق التي يتعرّضون لها من قبل الأوروبّيين، ولذلك فإنّ لكتابات "لخصّ"، أهمية كبيرة بالنّسبة للدّرس مابعد الكولونيالي المعاصر، باعتباره أحد أهمّ الكتاب الجزائريين والعرب المتأبّعين من قبل العديد من القراء، ليس في شمال إفريقيا فحسب، وأنما في العالم العربي وفي أوروبا أيضاً، بحكم أنه يكتب بالعربيّة والإيطالية وتُترجم نصوصه إلى الفرنسيّة، وقد يبدأ الكتابة بالإنكليزية بعد استقراره بالولايات المتّحدة.

ف "عمارة لخصّ" يُعدّ أحد أهمّ الرّوائيين الجزائريين المعاصرين، يكتب بقدرة فنيّة كبيرة، ويُعالج قضايا ذات أهمية بالغة في العالم المعاصر الذي تميّزه إشكالات كبيرة في علاقات الدّات بالأخر، ولعلّ السّؤال الذي يُطرح في البداية هو؛ ما سبب اختيار "لخصّ"

الهجرة والعيش في إيطاليا والكتابة باللّغة الإيطالية؟ في مقابل ذلك نجد عددا من الكتّاب المنتمين لبلدان المغرب العربي اختاروا اللّغة الفرنسية وكتبوا بها، ونالوا مكانة مرموقة في مجال الإنتاج الأدبي، حيث إنّ اللّغة الفرنسية فرضت نفسها كوسيلة للكتابة منذ بدايات الاستعمار في البلدان الإفريقية، ومنها المغرب العربي. كتب بها كلّ من "مالك حدّاد" و"كاتب ياسين" و"مولود فرعون" و"محمد ديب"، و"آسيا جبّار" و"رشيد بوجدرّة" و"إدريس الشرايبي" وغيرهم، حيث «وجد الجيلُ الأوّل من الأدباء الجزائريين أنفسهم أمام اختيار واحد هو الكتابة باللّغة الفرنسية التي يُتقنونها»<sup>1</sup>. فالكتّاب الجزائريون، استعملوا الفرنسية كوسيلة للتعبير عن خصوصياتهم الوطنية وهويّتهم القومية، كتبوا بها كشكل من أشكال النّضال والمقاومة من أجل إظهار هويتهم العربية-الأمازيغية، في ظلّ الظروف الكولونيالية؛ من جهل وأمية وحرمان وقهر واستعباد، غير أنّ عددا من الكتّاب المعاصرين عزفوا عن الكتابة بالفرنسية، وانتقلوا إلى الإيطالية والإنكليزية، ما يدلّ على تعدّد اللّغات التي يكتب بها هؤلاء الرّوائيون، وربّما يُبشّر الأمر بتحوّل جديد في الكتابة الروائية المغربية المعاصرة، بالرّغم من عدم تراجع الكتابة باللّغة الفرنسية.

إنّ الخروج عن الكتابة باللّغة الفرنسية لدى عدد من الكتّاب، لعلّ أهمّهم "عمارة لخص"، يُعتبر أهمُّ تحوّل يمكن التنبّه له، حيث إنّه يُخاطب بها قارئنا غير فرنسي ولا يعرف الفرنسية، كما أنّه يُعالج قضايا شديدة الأهمية في العالم المعاصر، فكتاباته تممّ المجتمعات العربية والغربية على السّواء، يتناول فيها قضايا الهوية الثقافيّة والهجرة والاختلاف الثقافيّ وإشكالات تعايش المهتمّشين والمهاجرين مع الأوروبيين، وهي قضايا تمثّل العلاقة بين الدّوات في المجتمعات المعاصرة الشّرقية منها والغربية، وذلك من خلال محاولاته رسم واقع تخييلي مبني على الرّغبة في التّعايش السّليم والحقيقي بين الأجناس المختلفة في سياق التّحوّلات التي عرفتها المجتمعات المعاصرة في فترة ما بعد الاستعمار \*\*\*.

إنّ العالم المعاصر يتميّز بالتّعقيد نظرا لمختلف التّحوّلات التي طرأت على المُجتمعات سواء في أوروبا أو خارجها، الأمر الذي أدّى لظهور عدد من الإشكالات في علاقات الشّعوب بعضها ببعض، خاصّة بعد حصول الاستعمار ثمّ انحصاره، وهكذا فإنّ العالم اليوم مقسّم إلى «نصف الكرة الجنوبي الخاصّ بالعبودية ونصف الكرة الشّمالي الخاصّ بالشّتات والهجرة، حيث يغدو هذان العالمان مزدوجين على نحو غريب في السيناريو

الهوامي الذي يجترحه اللاوعي السياسي<sup>2</sup>. فعالم مابعد الاستعمار هو عالمٌ جديد لا يُمكن التَّنظُرُ إليه إلا في إطار علاقات التَّسلُّط والهيمنة بين الجانبين الأنا/الأخر(أوروبا وشعوب بلدان العالم الثالث)، في قلب المُجتمعات الأوروبية والغربية عموماً.

أولاً: عمارة لخصوص\*\*\*\*؛ الرّواية والوضع ما بعد كولونيالي

أكمل "عمارة لخصوص" دراسته بالجزائر العاصمة بعد أن نال شهادةً في الفلسفة، ولكنه قرّر الهجرة إلى إيطاليا في تسعينيات القرن العشرين بعد الظّروف التي مرّت بها الجزائر في تلك السّنوات، وهو هنا يُشبه إلى حدّ ما الكاتب الجزائري ذي الأصول الفرنسية "البيير كامو" صاحب رواية "الغريب" الذي جاء إلى عالم الرّواية من الفلسفة، فقد جمعهما بلدٌ واحد هو الجزائر.

ومن الواضح أنّ الفيلسوف حين يكتب الرّواية تكون لها طبيعة خاصة، وهو ما سنلُمسه بالفعل، في كتابات "لخصوص" الذي أصدر في سنة 2003 أول رواية له وسماها بـ "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك" والتي أعاد كتابتها بالإيطالية، ثمّ صدرت ترجمتها الفرنسية بعنوان *Choc des civilisations pour un ascenseur Piazza Vittorio*، وهي محورُ بحثنا هذا، قبل الخوض في دراستنا لها، لابدّ من الإشارة إلى الظّروف السياسية والاجتماعية التي يعيشها العالم اليوم بعد تراجع الاستعمار، والتي لها دخل في بروز نوع من الأدب يكتبه كُتّابٌ ذوو أصول عربية أو إفريقية يتميّز بخصوصيات معينة، و"عمارة لخصوص" لم يشدّ عن ذلك، فالكاتب اليوم أصبح يُتابع النّظرية الأدبية المعاصرة، ومختلف الدّراسات النّقديّة التي توفّر له الأرضية المنهجية والفكرية التي تُمكنه من فهم قضايا العالم المعاصر وتوجّهاته العامّة، كما إنّ النّقد الأدبي - في الوقت نفسه - يُتابع إنتاجات الرّوائيين مُستخلصاً منها النّتائج التي تسمح له بالتّنظير في مجال الكتابة، من أجل فهم أكبر لقضايا الإبداع الأدبي والفني المعاصر وتحولاته المختلفة.

إنّ كتابات "عمارة لخصوص" تندرج ضمن هذا السّياق الثّقافي والفكري العالمي وتشترك مع أهمّ الكتابات الروائية التي تنحو هذا النّحو، حيث إنّ الكتابات الأدبية المعاصرة كتابات منفتحة، ترى أنّ الهوية الثّقافية الهجينة هي أصلُ الدّوات والثّقافات، بما يعني وجود «عنصر الغيرية في هذا الأدب الدّاتي، أي إلغاء مسألة التّعارض القائم بين الثّقافات واللّغات واستبدالها بمسألة التّعددية النّاتجة عن تقبّل فكر الآخر وتجسيده

بالممارسة»<sup>3</sup>. فالروايات المعاصرة تحمل جزءا من ذاتية مؤلفها، وتُظهر وعيا فكريا قائما على الدعوة إلى تقبّل الآخر وضرورة التعايش معه، وعدم الإيمان بانغلاق الهويات وثباتها. ولا يختلف "عمارة لخص" عن الروائيين العرب والأفارقة، الذين يكتبون باللّغة العربية أو باللّغات الأوروبية كالفرنسية أو الإيطالية أو الإنكليزية، والذين يركّزون في كتاباتهم على توضيح التقنيات التي يستعملها "التابع"، كما تُسمّيه الناقدة الأمريكية ذات الأصول الهندية "غاياتري سبيفاك" من أجل التّحرّر من هيمنة الثقافة الغربية، التي تحوي أنساقا ثقافية حول الآخر من جهة، وكيفيات تحقيق التعايش مع تلك المجتمعات الرافضة له من جهة ثانية، حيث «نظر الروائيون العرب إلى الحوار بين الحضارات على أنّه أحد السّبل الأجدى والأنتفع والأسلم لصون الدّات القومية وحمايتها من اشتراطات الواقع القاهرة من الآخر الغربي، ومن معضلات الوجود المتأثرة إلى حدّ كبير بهدر الإمكانية العربية ومقوّمات الوعي»<sup>4</sup>. فالحوار هو السّبل الوحيد للعيش في وسط تلك المجتمعات، ولكن هل يمكن لذلك أن يتحقّق؟

إنّ "عمارة لخص" يعيش كهوية متنقّلة، وكذلك شخصيات رواياته، تندرج نصوصه ضمن الكتابات الواقعية التي تُصوّر مسألة التعايش مع الآخر، ومختلف الموقّات والإشكالات التي يُصادفها المهاجرون في أوروبا عموما وإيطاليا على الخصوص، باعتبارها بلدا يحوي عددا كبيرا من الأجانب، فهو يُصوّر نماذج اجتماعية، ومواقف شخصيات إيطالية تُصدر خطابا مُشبعًا بالكراهية ضدّ كلّ ما هو أجنبي عن إيطاليا، كما يوضّح سوء الفهم الذي تُعانيه الثقافة الأوربية حينما يتعلّق الأمر بكلّ ما هو غير إيطالي، ويُبرز كذلك الاستجابات السّلبية التي يتعرّض لها كلّ من هو أجنبي، وضمن هذا الإطار الواقعي، يظهر «مفهوم سبيفاك للتّابع الثقافي Subaltern ولوضعه الاجتماعي والثقافي بل والسياسي أيضا. فمشروع سبيفاك قائم على تساؤل جوهري يُمكن تلخيصه على هذا النّحو: هل يمكن لأية هوية ثقافية تابعة أن تأخذ شرعيّتها وتُسمع صوتها في ظلّ فداحة الواقع العرقي وفي سياق هيمنة قمعية؟»<sup>5</sup>. فهل يُمكن للأجنبي أن يُحقّق مكانة لائقة في مجتمع رافضٍ له أساسا؟ وما هي الطريقة التي تُمكنه من أن يتجنّب الاستجابات السّلبية والعنصرية تجاهه؟ إنّ تحقيق كلّ هذا ليس بالأمر السّهل، خصوصا في زمن كثرت فيه العنصرية والإشكالات الناتجة عن كثرة الأجانب في البلدان الغربية.

ثانيا: الفضاءات البينية في مواجهة قوّة التّجاذب المؤسّساتي؛ تنظيرات "هومي بابا" يُعدُّ النّاقِد الأمريكي ذو الأصول الهندية "هومي بابا"\*\*\*\*\*؛ من أبرز المنظرين للدراسات مابعد الكولونيالية وأوضاع الدّوات في البلدان الغربية في مرحلة مابعد الاستعمار، وهو وضعٌ تميّز بتوافد جموع كبيرة من المهاجرين المنتمين للبلدان التي خضعت للاستعمار، بهدف العيش في أوروبا أو في أمريكا، قادمة من بلدانها الأصلية، طلبا لتحسين وضعياتها الاجتماعية، لكنّها تُلاقي ظروفًا لم تساعد على التّأقلم والاندماج، نظرا لرفض المجتمعات الغربية الاعتراف بأحقّية هؤلاء المهاجرين وطالبي اللّجوء السّياسي في العيش الكريم ببلدانهم، لأنهم يرون فيهم دُخلاء "يُلوّثون هويتهم"، و"هومي بابا" أحدُ أهمّ المُتَمَيّن بالإشكالات التي تعيشها الدّوات في فترة مابعد الاستعمار، حيث يُمثّل «كواحد من أبرز المنظرين مابعد الكولونياليين»<sup>6</sup>. لأرائه أهمّية بالغة في الموضوع الذي نحن بصدد الخوض فيه، لأنّ "عمارة لخصوص" يركّز على الوضعيات البينية والهويات المهاجرة، لذلك سنّخذ آراء "بابا" كخلفية نظرية من أجل فهم جيّد لكتابات "لخصوص" والقضايا التي تطرّحها روايته.

إنّ كتابات "هومي بابا" التّقديّة تهتمّ بعلاقة الدّوات ذات الأصول المختلفة في البلدان الغربية، حيث تظهر مختلف الصّراعات الاجتماعية والإثنية، في كتابه "موقع الثّقافة" يُقدّم للقارئ صورة دقيقة عن هذا الواقع المؤلم، الذي اختارت الدّوات القادمة من البلدان التي كانت خاضعة للاستعمار العيش فيه، «فأنّ تقرأ هومي بابا يعني أن تعيش تلك اللّحظات من الغرابة المقلقة، على الحدود مابين الثّقافات والأمم والهويات والعالم؛ في الممرّ الفاصل الواصل؛ على الجسر؛ في منطقة "الهجنة"، و"التّجاذب"، و"الانشطار"<sup>7</sup>» فما يميّز تلك المناطق هو أنّها تعيش وضعا بينيا خاصًا، يُتيح لها اختيارين؛ إمّا الخضوع للمُحدّدات الثّقافية لتلك البلدان أو رفضها والدّخول في صراع معها.

إنّ "هومي بابا" كان واعيا- بحكم مُعايشته الفعلية- لمختلف الوضعيات الجديدة للدّوات في البلدان الغربية، وخصوصا في علاقاتهم بثقافتهم وبالتّحافة التي تحتضنهم، حيث «تتمثّل إضافة عصرنا في أنّه يُموقع سؤال الثّقافة في عالم ال"ما بعد". فلقد يتنا على حافة القرن، أقلّ انشغالا بالفناء (موت المؤلّف) أو الظّهور (ولادة الدّات)»<sup>8</sup>. فهو يُحاول فهم علاقة الدّات بالآخر في المجتمعات المعاصرة والدّور الذي تلعبه الثّقافة كبناء فكري، في تكريس ردّات أفعال معيّنة تجاه الآخر.

إنَّ "هومي بابا" باعتباره قادمًا هو كذلك من بلد كان مستعمرة إنكليزية سابقة، حاول فهم كيفية تعامل المجتمعات الغربية مع الأفراد القادمين إليها، والذين يبدوون-في الظاهر- أنهم مُختلفون عنها، وينتبي إلى فكرة هامة، وهي أنَّ لثقافات تلك المجتمعات علاقات بعضها ببعض، وأنَّ حضور ثقافة الآخر في ثقافة الأنا شيء واقعي تاريخيا، ولذلك يأتي بفكرة "عدم قابلية الثقافات للترجمة" لأنَّها في أصلها مُتنقلة، مثال ذلك أنَّ الثقافة الغربية التي يدعي الغرب أنها فريدة ومتأسسة ذاتيا دونَ اختلاطها بالثقافات الأخرى، هي - في حقيقتها- ثقافات هجينة، لأنَّها نتيجة مثاقفات تاريخية مع عناصر حضارية متعدّدة، حيث إنَّه «لا تنبع» عدم قابلية الثقافة للترجمة» عند بابا من فرادة كلِّ ثقافة، وخصوصيتها، واختلافها عن الثقافات الأخرى، بل من كونها مختلطة على الدوام مع الثقافات الأخرى، ولا تبي تفيض على الحدود المُصطنعة التي تُقيمها الأمم لاحتوائها»<sup>9</sup>. فالمهاجر الذي يبدو غريبا في أوروبا وأمريكا، هو في أصله داخلٌ في تكوين الغرب نفسه، ويعود ذلك إلى أنَّ الإمبراطوريات القديمة تكوَّنت من أجناس مختلفة خصوصا تلك التي كانت تعيش في البلدان المطلَّة على البحر المتوسط، الأمر الذي سمح بدخول الأجنبي في تكوين الدَّات الأوروبية منذ القديم، وكذلك الثقافات أخذت عن بعضها منذ القديم، ولم تكن يوما منعزلة، فالدَّات -في هذه الحالة- تلاقى نفسها ثقافيًا وإثنيًا.

إنَّ الآراء التي جاء بها "هومي بابا" شديدة الأهمية في فهم الرواية المعاصرة، وعلى الخصوص كتاباتُ ذوي الأصول غير الأوروبية، الذين يعيشون في أوروبا نفسها ويكتبون لقرّاء أوروبيين، حيث يرى "بابا" أنَّ هناك بنيتين تكوَّنان خصوصيات الإبداع لدى هؤلاء الكتاب الذين ينتمون لعالم مابعد الاستعمار، حيث تبرز في كتاباتهم تلك الإشارة إلى "العين الشَّريفة" التي تحدِّق في الآخر وتقوم بتشكيله، وهي الطَّريقة التي يرى بها الغربي الآخر، ف«التَّحديقة، Gaze، مصطلح مُستمد من التَّحليل النَّفسي، وخاصَّة من تناول لاكان لموضوع الرؤية. فعند لاكان أنَّ التَّحديقة لا يُمكن اختزالها إلى الرؤية البشرية. فهي تُسبق هذه الرؤية وتصنِّعها لكنَّها تبقى متملَّصة وغير قابلة للتَّحديد. فهي تقف في جانب الموضوعات أو الأشياء المنظور إليها أكثر ممَّا تقف في جانب الدَّوات النَّاطرة، تقف في جانب الآخر أكثر ممَّا تقف في جانب الدَّات، تعمل على إخضاع الدَّات أكثر ممَّا توفِّر لها التَّسُّيد. وباختصار، فإنَّ لاكان يقدِّم التَّحديقة كقوة خارجية تُشكِّل الدَّات»<sup>10</sup>.

ف"العين الشريرة" هي تلك الطريقة التي يُقابل بها الأجنبي في بلدان أوروبا وأمريكا، ويُحس معها بأنه مراقب، الأمر الذي ينعكس في تصرفاته ويحد من حريته، فأحمد سالمي (Amedeo) الشخصية الرئيسية في رواية "عمارة لخص" المعنية بالدراسة هنا، تقوم العين الشريرة الإيطالية بتشكيله حيث يقوم بتكييف اسمه من "أحمد" إلى "أميديو" حتى يتناسب مع اللغة الإيطالية، فرارا من تلك التحديقة التي تُريد تشكيله واستبعاده، باعتباره مهاجرا وأجنبيا عن إيطاليا.

تؤدي تلك التحديقة المنبعثة من العين الشريرة بالذوات إلى "الاختفاء" هروبا من سطوة الأنا الأوروبية، وهو نفس ما حصل لأحمد سالمي (أميديو) وهو يعيش كمهاجر في إيطاليا وسط مجموعة من المهاجرين والأجانب، «ذلك أن تحديقة العين الشريرة تُغرب كلاً من أنا العبد السارد وعين السيد المراقبة. وهي تنزع استقرار أية استقطابات أو ثنائيات مبسطة. الذات/الأخر في إشارتها إلى ممارسة القوة، كما تمحو البعد القياسي أو التشابهي في الإفصاح عن الاختلاف الجنسي. فهي فارغة من ذلك العمق الشاقولي الذي يخلق تشابها طوطميا بين الشكل والمحتوى...على نحو ما يجدهه ينبوع التاريخ ويملؤه من جديد إلى ما لا نهاية. والعين الشريرة شأن الشخص الضائع ليست شيئا بحد ذاتها؛ وبنية الاختلاف هذه هي ما يُنتج هجنة العرق، والجنس في الخطاب مابعد الكولونيالي»<sup>11</sup>. هكذا، فإن كتابات الروائيين غير الأوروبيين تيمتها الأساسية، هي المفارقات التي تتعرض لها الذوات في المجتمعات الأوروبية المعاصرة.

لعل السبب الذي أدى إلى تلك النظرة للمهاجرين من قبل الأوروبيين هي ما يُسميه هومي بابا بـ"قوة التجاذب" والتي يعتبرها أحد أهم الاستراتيجيات الخطابية والنفسية التي تستعملها القوة القائمة، وهي هنا- كما يرى- المجتمع والثقافة والسياسة الأوروبية، والتي يقع المهاجرون تحت سلطتها، حيث إن «وظيفة التجاذب كواحد من أهم الاستراتيجيات الخطابية والنفسية لدى القوة القائمة على التفرقة والتمييز سواء كان هذا التمييز عنصريا أم جنسيا هامشيا أم متروبوليا، هي وظيفة لا تزال بحاجة إلى التفصيل فيها»<sup>12</sup>. فهذه القوة يعتبرها بابا "بابا" من أهم الأسباب التي تمنع اندماج المهاجرين في البلدان الغربية، لأنها الموجه الأول والسبب الأساسي لهذا الانغلاق والاستبعاد للآخر، وهي في أصلها أنساق فكرية قائمة في بنية الثقافة الغربية، التي تجد لهذا الرفض المبررات لبقائه قائما دوما.

ثالثا: عمارة لخص؛ الفضاء البيئي؛ نفي الجوهرانية والنقاء الثقافي\*\*\*\*\*

إنّ رواية "عمارة لخصوص" تطرّق قضية التّعايش بين المجتمعات باعتبارها ضرورة من ضرورات الحياة، ولا يمكن للطّبيعة البشرية أن تكون بخلاف ذلك، كما أنّها تُمثّل إحدى الاستراتيجيات التي تُطبّقها ذوات مابعد الاستعمار المُهمّشة في البلدان الغربية، وهي مفاوضتها على وضعها البيئي<sup>13</sup>، في مقابل "العين الشريّة" التي تُقابلهم بها الدّات الغربية، وهما مفهومان أشار إليهما الهندي "هومي بابا" كما ذكرنا، يراهما من بين الاستراتيجيات التي يستعملها المهاجر بهدف تحقيق أكبر قدر من الاندماج في المجتمعات الغربية المُستضيفّة، والكيفيات التي يُمكن بها تجنّب رفض تلك المجتمعات لهم. وقد ساعد "لخصوص" على الكتابة في الموضوع، معاشته الفعلية لأولئك المهاجرين.

تجمع الرّواية شخصيات من جنسيات مختلفة، سواء من الجنوب الإيطالي المختلف تماما عن أهل الشّمال (نابولي وصقلية وغيرها) أو من البلدان الأجنبيّة الأخرى، حيث نجد "من البنغلاديش" "إقبال أمير الله" ومن الجزائر "عبدو" بائع السمك و"ماريا كريستينا غونزاليس" القادمة من البيرو، والطّالب الهولندي "يوهان فان مارتن"، وإيطاليون من الشّمال والجنوب؛ من مثل الأستاذ الجامعي "أنطونيو مارييني" و"ساندرو دانديني"، و"ستيفانيا ماسارو" و"ماوروباتاريني" و"بنيديتا إسبوزيتو" و"إلزابتا فابيانيني" و"لورينزو مانفريديني"؛ كلّهم يعيشون في العاصمة الإيطالية روما، ومن خلال كلّ ذلك يُصوّر "لخصوص" وضع اللاّجئين الشّرقيين في إيطاليا وأوروبا عموما، والمفارقات التي يعيشونها في المجتمع الإيطالي بين الرّفص والقبول المحتشم، بين الصّراع والتّعايش، وبين محاولة إثبات الدّات وخصوصياتها وضرورة التّأقلم مع الوضع الجديد في عالم يبدو -في ظاهره- مختلفا عن وضعيات البلدان التي جاؤوا منها<sup>14</sup>.

المكان الذي كانوا يعيشون فيه كان بالفعل "فضاءً بينيا" له خصوصياته، اجتمعت فيه الدّوات من حيث أصول أجدادها وثقافتها الأصلية، وأصبحت تعيش وضعا فريدا داخل المجتمع الإيطالي؛ وضعٌ لا يمكن معه تجنّب الصّدّام، وهكذا، فالرّواية عبارة عن «أصوات من مصادر مُتباينة وأزمنة مختلفة وأماكن متعدّدة تجمع الإيراني بالنابولي بالبيروفي بالإيطالي الشّمالي، والجنوبي على حدّ سواء. كما تجمع الواقعي باللاّواقعي والخرافي بالمتخيّل. وما تحمله كلّ هذه النّماذج البشرية في المهجر الإيطالي من انشغالات وهموم، وما صاغته عقولهم من تراكمات ومخيلات داخل إيطاليا وخارجها...تترابك كلّ هذه

الأصوات داخل النصّ الروائي مُجسّدة منظورا خاصّا لهذه الثقافات المهدّدة في تعدّد روافدها وعمق مجراها وطوله واتّساعه، وفي تقديرنا إنّ هذا التّعّدّد داخل النصّ الروائي إنّما جاء ليعبّر عن حقّ الوجود وعن القيم المكتسبة في مواجهة السّلطة القامعة بإملاءاتها الفوقية وقوانينها الجائرة مثال ذلك ما حدث للإيراني (برويز صمدي الشيرازي) حينما منعتة الشّرطة الإيطالية من تقديم الحبوب الجافّة لطير ساحة (سان ماريا ماجوري) بحجّة إزعاجه للسّياح ومن ثم هدّوه برفض تمديد وثائق إقامته وإعادته إلى إيران»<sup>15</sup>. شخصيات الرواية المختلفة ثقافيا تُعبّر عن واقع اجتماعي أوروبي جديد (مابعد كولونيالي)، ظهر نتيجة الهجرات المتعدّدة، إنّ كانت أوروبا فعلا، تحتاج للمهاجرين من أجل اقتصادها، فإنّهم يظلون منبوذين بصفة عامّة، ولا يلقون الترحيب إلا من قبل قلة من الأفراد، لأنّهم يرون فهم تهديدا لهويتهم الأوروبية المُتمركزة حول ذاتها. كما تُصوّر الرواية كذلك رفض المجتمع الإيطالي للأجانب الذين يُعتقد أنّهم يريدون طرد الإيطاليين من بلدهم، وفي الوقت نفسه عدم رضاهم عن حكومتهم التي تبدو مقصّرة في جوانب كثيرة، فضلا عن مسؤوليتها في كثرة المهاجرين والأجانب.

تبدأ الرواية بحديث اللاجئ الإيراني "برويز منصور صمدي" الذي يعيش حياة صعبة في روما، ومُعابنته للمعاملات السيئة التي يُلاقها من قبل أفراد المجتمع، والسّلطات الإيطالية التي تُضايقه رافضة طلبه للّجوء السّياسي، حيثُ ليس له صديق سوى "أميديو" Amedeo الذي يبدو للجميع- من خلال لهجته- أنّه إيطاليّ من الجنوب؛ صديق برويز المقرب، ولشدة اعتقاده أنّ أميديو إيطالي، كان يرى أنّ «روما بدون أميديو لا تساوي شيئا . مثل طبق إيراني بدون بهارات»<sup>16</sup>. "أميديو" بشخصيته الطيبة وتعامله اللطيف

للمهاجرين ومساعدته لهم، يُعتبر مثالا عن الصورة الحقيقية للإيطاليين. "يحدثُ أنّ تقع أثناء كلّ هذا جريمة قتل لأحد سكّان البناية، ولم يكن الضّحيّة سوى "لورينزو مانفريديني" المدعو "غلادياتور" وتتهم الشّرطة "أميديو" الذي يختفي فجأة بعد وقوع الجريمة، ويتواصل البحث عنه بعد مقتل "لورينزو"، ويحدث كذلك أنّ يختفي كلبُ السيّد "فابيان" بالموازاة مع جريمة قتل "لورينزو"، وقد اعتبر اختفاء "أميديو" لغزا كبيرا جعل الشّرطة تتهمه بقتل الشّاب الإيطالي، غير أنّ كلّ واحد من التّراء يتفق على أنّ "أميديو" شخص طيب ومثقف ويستحيل أن يكون هو القاتل، ومن خلال ما يعرف كلّ واحد منهم عنه، تبدأ صورة "أميديو" تتضح شيئا فشيئا عبر صفحات الرواية، ويُعتبر

مصعد البناية التي يسكنها كل هؤلاء مكانا لحواراتهم ولخصوصاتهم ولصراعاتهم المتعددة، كما أنه مكان للتبؤل ورمز للحدائثة الأوروبية، مثله مثل الميترو والطائرة، وكل الاجتماعات تكون حول المصعد الذي يُعتبر محور أحداث الرواية منذ بدايتها<sup>17</sup>.

الصراع الذي يعيشه هؤلاء الجيران لا يختلف عن ذلك الصراع الثقافي الذي يكاد يُهيمن على العلاقة بين الأنا والآخر في الواقع المعاصر، ففي أوروبا نفسها «تلتقي الثقافات المختلفة وتتصادم وتتصارع مع بعضها بعضا، غالبا في علاقات شديدة الاختلاف من السيطرة والخضوع»<sup>18</sup>. فما يميز العلاقة بين الهويات الثقافية في العالم اليوم هو الصراع، فأوروبا اجتمعت فيها أعداد كبيرة من المهاجرين، ما خلق دوما صراعات متعددة الأشكال، ولكنّه من جهة أخرى أدى إلى الالتقاء ومحاولة فهم بعضهم البعض، حيث إنّه و«بالرغم من أنّ الاستعمار وُلد أيديولوجيات من الخلاف، لكنّه عمليا سمح لشعوب مختلفة بالتّماس الحميم مع بعضها بعضا. حاولت حكومات استعمارية مختلفة (بدرجات متفاوتة) الحفاظ على عزل ثقافي وعرقي، تماما، لأنّ التفاعلات بين الشعوب المستعمرة والشعوب المستعمرة تحدث عمليا، باستمرار أي تقسيم كامل بين الأعراق والثقافات. والنتيجة كانت مزيجا "هجانه" أصبحت ثيمة مهمّة في داخل نظريات الخطاب الاستعماري»<sup>19</sup>. فأماكن تواجد المهاجرين في أوروبا سمحت بإيجاد "هجنة ثقافية وإثنية"، وأصبحت مناطق التماس التي تجمعهم مجالا للصراعات من جهة، وسمحت -من جهة ثانية- بتكوّن نوع من التعايش الحضاري، ونجد في الرواية تحقّق كلّ من الصراع ومحاولات التعايش بين تلك الدّوات بالرغم من أصولها المختلفة .

الرواية مبنية على تعدّد السارد، حيث يُعطي الروائي الكلام لـ"برويز" ثمّ "بنيديتا" وبعدها يتحدّث "إقبال" ثمّ "إليزابيتا فابياني" و"ماريا كريستينا غونزاليس" وبعدهم يأتي سرد "أونطونيو ماريني"، ثمّ يأتي الدّور على "يوهان فان مارتن" ثم "صاندرودانديني" و"ستيفانا ماسارو" ثم "عبد الله بن قدور" وأخيرا "ماورو بيتاريني"، وسمّ "لخوص" كلّ فصل منها بـ "الحقيقة كما يراها كلّ واحد منهم". خلال كلّ هذا السرد المتواصل لكلّ شخصية من شخصياته، كان الروائي يقف على مسافة من خطابه الروائي، حيث نجد أنّ البنية السردية فيها «على مستويين، الأول تعدّد الأصوات في حديثها عن الذات وتشابك علاقاتها مع الآخرين، لإضائة النصّ بكامله، والثاني هو حديث الشخصية الرئيسة عن

ذاتها وعن الآخرين لإضاعة النَّصِّ بكامله، وجعل أحمد أو أمديو أحاديته تحمل عنوان "العواء" ضمن تسلسل رمقي يعلِّق فيه على ما ورد في أحاديث الشخصيات الأخرى»<sup>20</sup>. وهو يُشير إلى ما يُسمّيه الروائي بـ Hurlément مخصّصة لحديث "أميديو"، الأمر الذي سمح للقارئ بالتعرّف أكثر على شخصية "أميديو" المحورية في الرواية.

هكذا، يبدأ "برفيز منصور صمدي" اللّاجئ الإيراني في توضيح موقفه من موطن مهجره من خلال قوله "بأنّه لا يحمل أيّة ضغينة للإيطاليين"<sup>21</sup>. وهو ما يُحيل منذ البداية إلى جوّ الصّراع، لأنّه إيراني يعيش في إيطاليا "ولا ينتظر من المجتمع الإيطالي أن يقبله باعتباره لاجئاً، و"برويز" يعيش وضعا صعبا جدا، لأنّه فرّ من بلده وهاجر إلى إيطاليا طالبا اللّجوء السياسي خوفا من تصفيته، لكنّ طلبه يُرفض، ولذا فهو يعيش غربته في إيطاليا في مركز لللاجئين بعيدا عن الأهل والبلد، ويقضي وقته في معاقرّة الخمر كي ينسى حنينه وينسى كذلك ما يعيشه في إيطاليا من غربة ووحشة"<sup>22</sup>. "برويز" لم يكن وحده في مثل هذه الوضعية، بل إنّ إيطاليا كلّها تعجّ بالكثير من أمثاله الذين جاؤوا هروبا من تهديد ما، قد يكون الفقر أو التّعصّب أو تشدّد الأنظمة السياسية أو غيرها، ولكنهم لم يجدوا الوضع في أوروبا مُريحا، بل قبولوا بالرفض، والقسوة في الكثير من الأحيان.

حاول المنظرّ ما بعد الكولونيالي "هومي بابا" فهمّ الواقع الثقافي المعاصر في الغرب؛ واقع تعيش فيه ذوات ذات أصول مختلفة ويرى ضرورة التّعايش بينها في ظلّ الاختلاف الثقافي، ومشروعهُ قائم على الإقرار بأهمية العيش في الاختلاف، لأنّ الهوية لا بدّ من أن تكون قائمة على الاختلاف والتعدّد، ولذلك يدعو الغرب إلى قبول الآخر والاعتراف بخصوصياته، وبأنّه يمكن أن يكون جزءا من هوية الغرب ذاته، حيث «على المتريول الغربي أن يُواجه تاريخه ما بعد الكولونيالي، كما يرويه ذلك الدّفق من المهاجرين واللّاجئين الذين أتوا إليه بعد الحرب أي بوصفه سردا أصليا أو محليا من داخل هويته القومية»<sup>23</sup>. ف"هومي بابا" يُحاول الدّفق عن المهاجرين والمشتّتين ويرفض اعتبارهم منبوذين، يدعو إلى معاملتهم معاملة تليق بهم، لأنهم - في التّهاية - بشر مثلهم مثل البقية.

يُركّز "عمارة لخص" على "أميديو" من بداية الرواية إلى نهايتها، حيث تُحيل إليه كلّ شخصية وتحدّث عنه، كما يتحدّث هو أيضا عن نفسه، بعد وقوع جريمة قتل "لورينزو" ثمّ اختفائه المفاجئ عن الأنظار، أصبح في حكم المسلّم به، بالنّسبة للشرطة أنّ "أميديو" هو القاتل، فهو شخصية غامضة جدّا، لكنّه بالنّسبة لكلّ من يعرفه شخص طيب، لا

يمكن أن يكون هو القاتل، وهو صديق "برويز" الإيراني؛ يقف بجانبه كلما تعرّض لمضايقات الشرطية الإيطالية، أو عندما يُطرد من العمل ولا يجد ما يتقوّت به. نجد "برويز" في البداية يُلجّ بطرح تساؤله «هل أميديو Amedeo إيطالي؟ لا إجابة بإمكانها حلّ الإشكال. وأيضا من هو الإيطالي؟ هو من وُلد بإيطاليا ولديه جواز سفر إيطالي؟ وبطاقة تعريف إيطالية؟ والذي يُحسن التكلّم باللّغة الإيطالية؟ والذي يحمل اسما إيطاليا ويعيش بإيطاليا؟ مثلما ترون إنّ السّؤال معقّد جدّا»<sup>24</sup>. هذا التّساؤل هو الذي يقود سرد الرّواية من البداية، لمحاولة التعرّف على شخصية "أميديو" الحقيقية، وهو تساؤل له ما يُبرّره، لأنّ "أميديو" يُثير الكثير من الأسئلة لدى كلّ من عرفه، لأنّه كان يُحسن استثمار الوضع الجديد الذي يُوجد فيه بإيطاليا، فقد كان يعيش "وضعا بينيا"، يعرف روما جيّدا ويتكلّم الإيطالية بطريقة يصعب معها تمييز هل هو إيطالي أم لا، هذا بالرغم من أنّه كان في حقيقته مهاجرا كما سيّتضح في نهاية الرّواية.

إنّ "أميديو" يُعتبر نموذجا فحسب، لأنّه لا أحد يُمكنه الجزم بأنّه محدود بهوية ما، حتى ولو كان جزائريا، فقد يكون ذا أصول أخرى غير تلك التي يعرفها عن نفسه، لأنّ الهوية شيء غير ثابت أساسا، ولا يمكن تعيينها، لأنّ الحقيقة تميل نحو نفي النّقاء الثّقافي، والهجنّة الثّقافية هي سمّة المجتمعات المعاصرة، ف «ليست الهوية موضوعا ثابتا أو حقيقة واقعة بل هي إمكانية حركية تتفاعل مع الحرية. فالهوية قائمة على الحرية لأنّها إحساس بالذّات، والذّات حرة. والحرية قائمة على الهوية لأنّها تعبير عنها...الهوية إذن ليست شيئا مُعطى بل هي شيء يُخلق. لا يشعر بها كلّ إنسان كوعي مباشر...يأتي الوعي الذّاتي بعد الوجود البدني، ثم يأتي الوعي بالعالم المحيط. وينشأ التّساؤل عن الهوية: من هو؟ ولماذا هو في هذا الوضع الاجتماعي؟ وماذا يعني المحيط السّياسي حوله؟»<sup>25</sup>. فلو لم يكن "أميديو" إيطاليا، فإنّ هويته تبقى مفتوحة، واسمهُ الجديد تحريف لاسمه الحقيقي "أحمد"، غيرهِ كشكل من أشكال المفاوضات على وضعه البيئي، حتى يضمن لنفسه التّعایش مع الإيطاليين في روما، ويتحرّر من النّظرة الضيّقة والمُستبعدة له، باعتباره أجنبيا قادمًا من بلد بعيد وثقافة مختلفة.

تحوم شكوك الشرطية في روما حول تورّط "أميديو" في قتل "لورينزو"، وفي جوّ يُميّزه الصّراع بين نزلاء البناية التي يُقيم فيها مهاجرون وأوروبيون وإيطاليون، لم يأتِ بذهن أحد

منهم أنّ "أميديو" هو القاتل، بل يرفضون التسليم بما ذهبت إليه الشّرطة، لأنّه كان محترماً من قبل المهاجرين، وفي الوقت نفسه كان في نظر كلّ من يعرفه من إيطاليين وأوروبيين مواطنًا إيطاليًا قادمًا من الجنوب، وبناء على ذلك رفضوا اعتباره مرتكب الجريمة، لأنّ القاتل - في رأيهم - لا بدّ من أن يكون من المهاجرين، لأنّهم يرون فيهم أشخاصًا غير طبيعيين في مآكلهم وأخلاقهم وتصرفاتهم، متورطون في الاتّجار بالمخدرات والاعتداءات، فهم مهيوّون لمثل تلك الأفعال غير السّوية، وهي نظرة سلبية للمهاجرين تنتشر لدى أغلب أفراد المجتمع في إيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية، ونجد في الحوار بين الخادمة "بينيديتا" و"برويز"، التي تبادل بسؤاله، «هل تأكلون الكلاب والقطط في ألبانيا؟» "حافظتُ على هدوئي". وأجابها هل تعرفين عمر الخيّام؟ هل تعرفين السّعدي؟ هل تعرفين حفيز؟ نحن لسنا متوحّشين نأكل الكلاب والقطط. وما دخلي وألبانيا؟ تعودت منذ صغري على احترام كبار السنّ. ثم تركتها قائلاً شكراً سيدي»<sup>26</sup>. الخادمة "بينيديتا"، تعتقد أنّ الألباني (الإيراني برويز كما تصفه) هو القاتل الحقيقي، بل هي متأكّدة من أنّ أحد هؤلاء الأجنبيّ المهاجرين هو قاتل "لورينزو مانفريديني" لمجرّد أنه أجنبي، ولا تكلف نفسها عناء التّأكد من الأمر، بل إنّ رأيها نابع من بغضها الشّديد للأجنبي ورفضها أن يعيشوا في بلدها إيطاليا لأنّهم يهدّدون صفاء الشّعب الإيطالي ذي الأصول الرومانية العريقة كما تدّعي<sup>27</sup>.

إنّها تُلصق كلّ الصّفات غير الطّيبة بالمهاجرين، فهي لا تراهم بشراً، وتنتقص منهم مستعملة ألفاظاً قبيحة أثناء الحديث مع "برويز"، متّهمة إياه بالكذب، والكذب من الصّفات التي تُلصق عادة بالأجنبي، فهي «لا تصدّق برويز بأنّه لم يكن ألبانيا وترى أنّه يكذب ويُرِيد إقناعها بأنّه من بلد آخر. وهو ليس الوحيد الذي يَنكر بلده الأصلي، من أجل تجنّب الإبعاد من إيطاليا. وهي ترى أنّ كلّ الأجنبيّ يكذبون حتى صاحب المتجر البنغلاديشي إقبال»<sup>28</sup>. فهي ترى أنّ كلّ المهاجرين المتواجدين بروما يكذبون، ولا يمكن تصديق ما يقولون، لأنّ الكذب صفة دائمة فيهم لا يمكنهم الإقلاع عنها، فبمجرّد أن يتعلّق الأمر بأجنبي تبدأ الأنساق الثّقافية بالاشتغال لتكوّن مادّة من الحديث بالنّسبة لـ"بينيديتا".

لا تكتفي "بينيديتا" بهذا، بل نجدها حانقة على الحكومة الإيطالية لأنّها مكّنت هؤلاء المهاجرين والمنفيّين من الدّخول لبلدها والعيش فيه، لذلك ترى أنّه «على الحكومة أن

تُبدى ردّ فعل. قليلا ويطرّدوننا من بلدنا. ويكفي أن تقوم بإطالة في المساء على حدائق Piazza Vittorio لترى أنّ غالبية النَّاس فيها أجانب من المغرب ورومانيا والصّين وألبانيا والهند وبولونيا والسّنغال. العيش مع هؤلاء مستحيل. لهم دياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم المختلفة عن عاداتنا، في بلدانهم يعيشون في العراء أو في خيم ويأكلون بأيديهم، يتنقلون فوق أحمرّة ويُعامِلون نساءهم كالعبيد. أنا لست عنصرية ولكنّها الحقيقة...ثمّ لماذا يأتون إلى إيطاليا؟ لست أفهم. لدينا الكثير من العاطلين عن العمل. أنا أقول بأنّ الجريمة قد تجاوزت الحدود»<sup>29</sup>. إنّها ترى أنّ الحكومة الإيطالية مقصّرة في حقّ شعبيها، ومهما ادّعت من أنّها تعمل وتجتهد لتجعل حياتهم جيّدة، فإنّها -في الحقيقة- تعمل بعكس ذلك، ولا يُعتبر سماحها بدخول كلّ هذه الأعداد من المهاجرين إلى بلدها عملا جيّدا، بل إنّها -من خلال ذلك- قد أغرقتهم في المشاكل والجريمة، ومهما ادّعت هذه الخادمة بأنّها لم تكن عنصرية، إلاّ أنّ أفكارها كانت نابعة من عنصرية متجذّرة في نفسها وفي نفوس عدد كبير من الأوروبيين فيما يتعلّق بالمهاجرين.

تشارك السيّدة "إليزابيتا فايباني" مع الخادمة "بينيديتا" في رأيها عن المهاجرين الذين يملؤون شوارع روما، فهم سببُ الاضطرابات والمشاكل الاجتماعية، وارتفاعُ نسبة الجريمة هي إحدى نتائج سياسة الحكومة الإيطالية التي سمحت لهم بالدخول للبلاد والعيش فيها، ولذلك فهي ترى أنّ «الحقيقة، هو أنّنا لسنا بحاجة للمهاجرين. لقد سمعت أحد السّياسيين يقول مرّة في التّلفزيون بأنّ الاقتصاد الإيطالي بخطر الانهيار بدون المهاجرين. هذا، كذب ينشره الاشتراكيون وكهنة المعابد. يُمكن لنا أن نستغني عن المهاجرين. يكفي أن نقوم بتدريب كلابنا جيّدا...تُوجد كلاب مدرّبة في مستوى عالٍ، من أجل مرافقة المكفوفين في الشّارع، أو يقومون بالتسوّق وبمختلف المهّمات...لسنا بحاجة للمهاجرين، ومن غير المقبول أن نعلّمهم اللّغة الإيطالية ونُعطيهم مساكن، ولشكرنا يقومون بالاتّجار بالمخدرات في السّاحات العامّة وانتهاك أعراض الفتيات. كثير. هذا كثير»<sup>30</sup>. فهي ضدّ تعلّم المهاجرين للّغة الإيطالية وضدّ اندماجهم في الحياة الاجتماعية، لأنّهم لا يعرفون سوى الاتّجار بالمخدرات، كما ترى أنّ الادّعاء بأنّ إيطاليا في حاجة للمهاجرين من أجل تطوّر اقتصادها -كما يروّج لذلك السّياسيون في إيطاليا- هو مجرد كذب بالنّسبة للسيّدة "فايباني"، وإنّه يمكن -في رأيها- أن تُستعمل الكلاب في مكانهم

من أجل قضاء حوائج النَّاس اليومية، وهو رأي يتوافق مع الخطاب السياسي في أغلب بلدان أوروبا، وخصوصاً لدى عدد من الأحزاب اليمينية المتطرفة التي تقف موقف الرافض للمهاجرين ولاندماجهم في الحياة الاجتماعية الأوروبية.

لعلَّ وجهة نظر السيدة "إليزابيتا فابياني" وغيرها ممن يمتلك الرؤية نفسها في المجتمع الإيطالي، كانت نتيجة هويتها المنطوية والثابتة والرافضة للآخر، والمُشبعة بالعنصرية تجاه كلِّ ما هو أجنبي، حيث وفي مثل هذه الظروف «تحوُّل الهوية المنطوية المُتكمِشة المتقلِّصة إلى الهوية المنبسطة المنفرجة المتمددة. تتضخَّم الهوية بحيث تطفئ على الوجود ذاته»<sup>31</sup>. فهوية السيدة "فابياني" هي هوية متضخِّمة لا يُمكنها من أن تنظر للمهاجرين نظرة منصفة وإنسانية.

إنَّ إشكالية المهاجرين المهمَّشين، ووضعياتهم في أوروبا وأمريكا تُميِّز راهن الإبداع الأدبي المعاصر، وتُعتبر من التيمات الأساسية للروايات الإفريقية والعربية على الخصوص، كما يطغى الحديث في هذا الموضوع على النقاش الدائر في الساحة النقدية المعاصرة، حيث يتمَّ التطرُق لمسائل خصوصياتهم الثقافية ولصعوبات اندماجهم، وكذلك للإشكالات المتعلقة بهوياتهم وبلدانهم الأصلية ووضعهم الاجتماعي في قلب المجتمعات الغربية، ورفضهم من قبل تلك المجتمعات جاء نتيجةً عنصرية مقيتة، لم تستطع التخلُّص من موروثها التاريخي المُشبع بأنساق العبودية والإزاحة والاستبعاد، وهكذا ف «قد يكون انبعاث الهوية العنصرية وسط انهيارها الفعلي أخباراً جديدة لدى الجامدين من أنصار التعددية الثقافية. وقد صاغ أحد مؤرخي الهجرة الذين يلقون تقديراً كبيراً، وهو ماركوس لي هانسن "قانوناً" متعلقاً بالأجيال يتناول هذه المسألة، وأسمى هذا القانون "مبدأ اهتمامات الجيل الثالث"، ويمكن تلخيصه في الحكمة التالية: "ما يودَّ الابن أن ينسأه هو ما يودَّ الحفيد أن يتذكَّره". وحسبما يقول به هانسن فإنَّ الجيل الأول من المهاجرين، المثقلين "بموم مادية" يُبدون اهتماماً قليلاً بثقافة "العالم القديم" الذي جاؤوا منه. أبناؤهم وبناتهم يلقون السخرية من الأمريكيين أهل البلد، يريدون أن يهربوا من اللُّغة الأجنبية، ومن عادات الأسرة والدين، ومن ثمَّ يتبنون سياسة النسيان. لم يكن أحد أكثر تأمراً من شخص له أصول أجنبية... إنَّ الجيل الثالث هو الذي يُغني بعثَ الهوية الثقافية والحماسة للتعددية الثقافية»<sup>32</sup>. المهاجرون والمُبعدون من بلدانهم وطالبو اللجوء السياسي في الغرب، أصبحوا واعين بضرورة التعايش وبذل المزيد من

الجهود لتحقيق الاندماج في تلك المجتمعات لأنّها السبيل الوحيد للعيش الكريم، لكنّ محاولات اندماجهم تتخذ أشكالا كثيرة، لعلّ من بينها حسن السلوك وعدم لفت الأنظار، وكذلك المشاركة فيما تبتناه المجتمعات الغربية من قيم، والالتزام بما يتّخذونه من سلوك إنساني .

بالرغم من محاولات الاندماج، فإنّ غالبية المجتمعات الغربية ما تزال تُبدي الكراهية لكلّ ما هو غير غربي، ومهما حرص المهاجرون على التزام السلوك الأخلاقي والإنساني القويم، إلا أنّ الكثير من الأفراد في مجتمعات أوروبا ما يزالون يُظهرون العداء لكلّ من هو غريب اجتماعيا وثقافيا، باعتباره أدنى مكانة وأقلّ تحضّرا، ويأتي مثل هذا على لسان "بينيديتا" التي تقول «لقد قيل لي بأن الصّينيين يأكلون لحم القطط والكلاب. بعد ما قتلته لكم، ليس هناك من شكّ في أن الصّينيين هم من سرق المسكين "فالونتينو"، وقد قاموا بأكله»<sup>33</sup>. فالصّينيون -في اعتقادها- هم سبب نقص القطط والكلاب في شوارع روما لأنهم يُحبّون أكلها، لكنّ في التّهاية، يظهر أن "لورينزو" المقتول هو من قام بسرقة كلب السيدة "فابياني"، الأمر الذي يجعلها تنتقم منه بقتله، كما أثبتت ذلك شرطة روما، وتبقى "بينيديتا" تعتقد أن "أميديو" ليس هو القاتل لأنّه كان -في نظرها- إيطاليًا، والإيطاليون ليسوا كالأجانب، ولا يمكنهم ارتكاب ما يرتكبونه من أفعال سيّئة.

وكما كان الأمر بالنّسبة لـ "أميديو"، كان الحال كذلك بالنّسبة لـ "إقبال"، ذلك الشّخص الطيّب الذي يبذل جهده كلّ من أجل تحصيل لقمة العيش وسط مجتمع إيطالي مليئ بمشاعر الكراهية والعنصرية، وبالرغم من كلّ ذلك فإنّنا نجدّه يسعى جاهدا للاندماج، فهو يترك زوجته تخرج لتعلّم اللّغة الإيطالية، وهي تمثّل نوعا من المفاوضة على وضعه بتعبير "هومي بابا"، حيث «تنامت الضّغوط الغربية على العرب والمسلمين، فغيّر أحمد اسمه وحرص على تحوّلّات مظهره الشّخصي، مثلما قرّر المسلم البنغلاديشي "إقبال أمير الله" الاندماج بالمجتمع الإيطالي، وبَدّل عنصر التّنشئة الاجتماعية لابنه، وألحقه بالحضانة الإيطالية، وأقنع زوجته بتعلم اللغة الإيطالية لتغطية على رفض إيطاليين تأجير المهاجرين بيوتا يقيمون فيها، ومحاولات إيطاليين آخرين إدانة مهاجرين للتخلّص منهم»<sup>34</sup>. إنّ إقبال يُحاول الاندماج من قوة من خلال قبوله تغيير أسماء أبنائه إلى أسماء إيطالية، ومن جهة أخرى تركّ زوجته تخرج لتعلّم اللّغة والثّقافة الإيطاليين.

أمام تلك الضغوطات التي يُمارسها المجتمع الإيطالي، والعنصرية التي يلاقيها المهاجرون، فإنَّ "إقبال" يعتقد أنَّ "أميديو" إيطالي طيب، يدين بالمسيحية، ولذلك فإنَّه يُبدي مشاعر الاحترام تجاهه، ويمضي يقول «حين أرى السيد أميديو مع صديقه الإيراني "برويز" في حانة "دانديني" أشعر بالسعادة وأقول لنفسي: "ما أجمل أن أرى مسيحياً ومسلماً مثل أخوين حقيقيين. لا يوجد فرق بين المسيح ومحمد، وبين الإنجيل والقرآن وكذلك بين الكنيسة والمسجد»<sup>35</sup>. فهو جرأً معايشته للمجتمع الصَّغير في "ساحة فيتوريو"، ومن خلال المشاعر الطيبة والعلاقات الجيدة والتعايش الحضاري التي لاحظها بين البعض ممَّن يعرفهم، فقد أصبح يأمل أن يكون حقيقة واقعية في يوميات المجتمع الإيطالي، خصوصاً إذا عرفوا حقيقة الأديان الأخرى كالإسلام، حيث يعتقد إقبال «بأنَّ الإيطاليين لا يعرفون الإسلام كما يجب بل يرون أنَّه دين التَّحريمات»<sup>36</sup>. الأوروبيون على عمومهم يعانون- دائماً- من سوء فهم في نظرهم للآخر وللعرب والمسلمين على الخصوص، وسوء الفهم هذا هو ما أدَّى لظهور مثل هذه الإشكالات في التَّعايش بين الأجناس البشرية، لأنَّ طريق التَّعايش السلمي يمرَّ عن طريق الحوار مع الآخر ومحاوَل فهمه، وإقبال مثل كلِّ من يعرف "أميديو" كان يعتقد أنه كان إيطالياً طيباً، ولذلك فهو لا يصدِّق أن يكون هو قاتل "لورينزو".

الأمر نفسه بالنسبة لـ"أنطونيو ماريني" أستاذ مادَّة التَّاريخ بجامعة روما، الذي لا يختلف رأيه عن "أميديو" عن آراء الآخرين، ويتعجَّب من كونه ليس إيطالياً، حين يقول «أميديو مهاجر! بالنسبة لي، لا يوجد فرق بين المهاجرين وسكَّان جنوب إيطاليا»<sup>37</sup>. بالنسبة له لا يوجد فرق بين المهاجرين وبين الإيطاليين من سكَّان الجنوب، وهي إشارة إلى نظرة الشماليين للجنوبيين في إيطاليا، حيث تلتقي تلك النَّظرة مع نظرهم لغير الأوروبيين. كما يذكر أنه في أثناء حوارهِ مع "أميديو"، حول تاريخ الإمبراطورية الرومانية، اكتشف أنَّه كان مطلعاً -بشكل جيد- على الوجود الروماني في بلدان شمال إفريقيا، حيث عاش الرومان مع الأمازيغ ووسَّعوا إمبراطوريتهم، الأمر الذي كرَّس لديه فكرة كونه من جنوب إيطاليا، ويُضيف «رأيتُه يقرأ باهتمام شديد "Salluste" "حرب يوغرطا" وما استرعى انتباهي أكثر معرفته الجيدة بالقديس أوغسطين، إنه بدون جدال كاثوليكي بحق، إنَّه يؤمن بقيم الكنيسة والطبيعة المقدَّسة للعمل وللعائلة ويعرف أيضاً الإنجيل...ولذلك لا يمكن أن أعتقد أنَّه هو القاتل»<sup>38</sup>. إنَّ شخصية "أميديو" المثقَّف و"المسيحي" الطيب-

كما يُعتقد- لا تجعل "أنطونيو ماريئي" يميل إلى اعتباره مرتكب جريمة القتل، التي ما تزال الشرطه تبحث عن مقترفها.

بالرغم من كل ذلك، فإنّ "أنطونيو ماريئي" يرى أنّ شخصية "أميديو" تلقّها الغرابه، حيث يضيف بأنّ «أميديو شخصية مليئة بالمفارقات، يرتاد المكتبات للبحث والدراسة لكنّه يقضي ساعات في حانة "ساندرو"، هذه العادة مشهورها أهل الجنوب...للأسف تردده على الحانة أثّرت سلبيا على طريقة عيشه»<sup>39</sup>. إنّ "أميديو" في رأيه كان مثقفا ومطلعا بشكل جيّد على تاريخ أوروبا وشمال إفريقيا، وكان يُطالع الكتب ويعرف الإنجيل، محققا بذلك أكبر قدر من الاندماج في المجتمع الإيطالي، وفضلا عن ذلك فهو يعرف جيّدا مدينة روما وأزقتها، أحسنَ من بعض سكانها، ويبقى الشيء الثابت بالنسبة له هو إزاحة فرضية ارتكاب "أميديو" لجريمة القتل، لأنّه كان يعتقد أنّه إيطالي وليس مهاجرا، وهو ما يعتقدده أيضا الطالب الهولندي "يوهان فان مارتن"، والذي يتعجّب حين سماعه بأنّه ليس إيطاليا، ويعجّب «أميديو» "أجنبي! هل من المنطقي أن يكون الشخص الذي يُمثّل إيطاليا الرّائعة أجنبيا؟ إنه الشخص الوحيد الذي يجيب عن أسئلتي حول السياسة والمافيا، السينما والطبخ وغيرها. وأيضا إنّني لا أفهم كيف يُتهم أميديو بقتل غلادياتور (لورنزو مانفريديني)»<sup>40</sup>. فقد حقّق "أميديو" اندمجا في المجتمع الإيطالي، وحرص على اطلاع على كلّ ما يستجدّ في حياتهم الاجتماعية والسياسية وغيرها، وكان يعرف الطبخ الإيطالي كذلك، ولذلك فلا أحد كان يظنّ بأنّه لم يكن إيطاليا.

أما بالنسبة لصاحب الحانة الإيطالي "ساندرو دانديني" الذي كان يعرف "أميديو" عن قرب، فقد وجد صعوبة كبيرة في اعتباره أجنبيا، حيث يقول: «كما ترون لن يكون سهلا إقناعي بأنّ صديقي "أميديو" ليس إيطاليا»<sup>41</sup>. وما زاد في غرابه الأمر -بالنسبة له- هو ألفة اسمه في روما، الذي لا يبدو غريبا بالنسبة لسكانها من الإيطاليين، ولذلك يوجد المسوّغات والمبررات كي يُبقي على اعتقاده أنّ "أميديو" إيطالي، بناء على اسمه المشهور به لدى معارفه «Amedeo هو في الحقيقة Amedeo. في روما نحذف عادة الحروف الأولى أو التي في الوسط أو الحروف الأخيرة للأسماء...عرفته حين جاء للسكن في "بياتزا فيتوربو". وأتذكّر جيّدا لقاءنا الأول: لقد طلب كابوتشينو وهلالية.جلس وبدأ يقرأ في ركن Montanelli في Corriere della sera لم أر في حياتي صينيا أو مغربيا أو رومانيا ...

يقراً كوريري ديللا سيرا" أو! La republica. المهاجرون لا يقرأون إلاّ Porta Portese من أجل إعلانات العمل»<sup>42</sup>. إنّ شيوعَ اسم "أميديو" في اللّغة الإيطالية يُشير إلى هذا الامتزاج الثقافي بين الأوروبيين وغيرهم من الشّعوب، فقد وصلت سيطرة الإمبراطورية الرومانية لمناطق بعيدة، ولذلك فإنّ جزءاً هاماً من الأجناس غير الآرية دخلت في تكوينها، وهو أمر طبيعي لأنّ من يعتبر نفسه أصيلاً في قومه قد يكون ذا أصول مغايرة وهو - في نهاية المطاف - هوية متحرّكة بالنظر إلى أصوله. ولمّ التعصّب للذات وإبداء العداء والرفض للآخر إذن؟ إنّ هذه المسألة تُعتبر من أهمّ تيمات هذه الرواية.

يتذكّر "دانديني" لقاءه الأوّل معه، وكيف كان يحاول أن يعرف أكثر عنه وعن أصوله، وبعد إلحاح منه أخبره أنّه كان من الجنوب، ويقول إنّ «أميديو ترك في انطبعا رانعا في بداية لقائنا الأوّل. إجابته "إنني من الجنوب" أزعجتني، أنا لست عنصريا. لكني لا أتحمّل سكان نابولي. وتمنيت- من كلّ قلبي- ألاّ تكون له أية علاقة بسكّان نابولي، حاولت أن أعرف تفاصيل أكثر عنه وعن أصوله وعائلته، وأرائه حول الرياضة والسياسة، لكنّ أميديو لا يتكلّم كثيرا وهذا يجعل الأمور أكثر صعوبة. لقد اكتشفت أنه يعرف هذه المدينة (روما). أنتم لا تعرفون "أميديو: مثلي. إنه يعرف تاريخ روما وشوارعها أحسن منّي لا تقولوا إن "أميديو" مهاجر هذا يشعرني بالألم في رأسي. شخصيا أنا لا أكره الأجانب»<sup>43</sup>. و"أميديو" أو "أحمد سامي" الجزائري لم يكذب حين قال لـ"دانديني" إنّّه من الجنوب، حيثُ كانت شمال إفريقيا جزءاً من الحضارة الرومانية في القديم، ولذلك فهو كان يقصد أنّه من الجنوب أي جنوب أوروبا، حتى لا يبوح بأسراره لأنه كان متحفّظاً عن كلّ ما يتعلّق بأصوله، ويبقى الأهم بالنسبة لدانديني هو أنّ «أميديو لا دخل له في جريمة القتل المروّعة»<sup>44</sup>. ليس لأنّه كان يعرفه جيدا، وإنما لكونه كان إيطاليا في نظره، والإيطاليون ليسوا بمجرمين.

تأتي بداية كشف حقيقة أميديو من قبّل صديقه ومدرّسة اللّغة الإيطالية "ستيافانيا ماسارو" التي كانت تعيش معه، وبالرغم من قربها الشّديد منه، إلاّ أنّها لم تستطع أن تعرف عن ماضيه الشّيء الكثير، وبقي كلّ ما يتعلّق بهويته الحقيقية واسمه وعائلته وأصوله بالنسبة إليها غامضا، وغير معروف بشكل كاف، لأنّ «أميديو لا يحبّ الماضي كان يقول لي دوما إنّ الماضي مثل الرّمال المتحرّكة لا نستطيع الإفلات منها»<sup>45</sup>. في الحقيقة إنّ معرفة تفاصيل "أميديو" لم يكن أمراً مهمّاً ومطلوباً بالنسبة لها، ولم تكن مهمّة باكتشافه، حيث

تُضيف «لا أشعر بالخبيل لأني لم أعرف جيدا أميديو بالرغم من كل السنين التي قضيتها معه. إنها رحلة مفتوحة مليئة بالمفاجآت والاكتشافات العجيبة»<sup>46</sup>. فقد تركت نفسها تكتشف "أميديو" بمرور الأيام، ولم تكن في قلق من جهلها لماضيه وأصوله، ما كان يُهمها هو أنه كان يُحبها وكان شخصا طيبا، ولم يكن هناك فرق بينه وبين باقي الإيطاليين، لأنها لم تشعر باختلافه؛ يُجيد التكلّم بالإيطالية، كما كان مطلعاً على ثقافتها ودينها وتاريخها القديم، وهو ما يعني أنه كان يرضعها؛ أي يكتسب هويتها من خلال تشرّبه لخصوصياتها المتعدّدة. ف "أميديو" -كما ترى "ستيفانيا"- «عصامي... كان يسمّي القاموس Zingarelli بزجاجة الرضاعة. كان فعلا كرضيع ملتصق بصدر أمّه»<sup>47</sup>. "ستيفانيا" ترمز إلى إيطاليا وكيف يجب أن تكون؛ تضمّ الدّوات وتعتبرهم جزءا منها، تماما كما كانت الإمبراطورية الرومانية في القديم تعتبر المناطق الواقعة تحت سلطتها امتدادا لهويتها الواسعة، بل إنّ العديد من القادمين من مناطق بعيدة أصبحوا رومانين وعاشوا باعتبارهم كذلك، بالإضافة إلى أنّهم شاركوا في إنجازات روما العسكرية والحضارية.

بالرغم من معرفة "ستيفانيا ماسارو" في الأخير أنّ "أميديو" كان عربيا، فإنها لم تستغرب الأمر، فهو «مثل الصّحراء، وجمع عجائب الصّحراء ليس بالأمر السّهل»<sup>48</sup>. إلا أنّها تتفق مع الآخرين في عدم الاعتقاد بأنه قاتل "لورينزو"، حيث تُصرّ على أنّه «لا علاقة بين مقتل لورينزو واختفاء أميديو. أنا متأكّدة من أن أميديو بريء»<sup>49</sup>. إنّ براءة "أميديو" أمرٌ محسوم بالنسبة لها، مثلما هو بالنسبة لباقي من يعرفه من جيرانه وأصدقائه، فهي تعيش معه ورأت فيه شخصية طيبة يستحيل عليها ارتكاب مثل تلك الجرائم.

إنّه وبالرغم من كلّ ما قالته "ستيفانيا" عن "أميديو" إلا أنّ حقيقته الكاملة لم تُكشف إلا بعد شهادة الجزائري "عبد الله بن قدّور" في البداية، ثمّ ضابط شرطة روما "ماورو بيتاريني". و"عبد الله" هو أحد معارف "أميديو" وواحد من سكّان الحي الذي وُلد فيه بالجزائر، عامل يجني قوت يومه وكان يعرف "أحمد" لأنّه كان صديقا لأحد إخوته في حيّ من أحياء العاصمة الجزائرية، وهو يتساءل عن سبب تغيير اسمه، لأنّ اسمه الحقيقي هو "أحمد سامي"، ويقوم بذكر كلّ ما يعرفه عنه، فيذكر أنّ «أميديو يسكن في حيّ أعرفه جيّدا وكذلك عائلته... أحمد كان محبوبا ومحترما في الحيّ... مشاكل أحمد بدأت عندما

ماتت خطيبته "بهجة" ابنة الجيران، كان يحبها دوماً، وأراد الزواج بها، لكن الأمور جرت بعكس ذلك...ذات يوم ذهبت بهجة لزيارة أختها في بوفاريك ليس بعيداً عن العاصمة، وفي طريق عودتها بالحافلة أقام إرهابيون حاجزاً مزيفاً متنكرون بزي الشرطة، وقاموا بذبح الركاب إلا الفتيات. حاولت بهجة الهروب من المجرمين فرارا من انتهاك عرضها، فأمطروها بوابل من الرصاص، لم يتقبل أحمد هذه المأساة. بقي مُغلِقاً على نفسه لأيام ثم اختفى...قال بعض الناس إنه التحق بالجيش لينتقم لبهجة من الأصوليين المسلحين، والبعض الآخر قالوا إنّه انضم للإرهابيين في الجبال...ومنهم من رأى أنّه ذهب إلى الصحراء وانضم لطائفة صوفية ويعيش مثل "الطوارق". وأخيراً، قيل إنه جُنَّ وأصبح ضالاً في الشّارع<sup>50</sup>. إنَّ "عمارة لخص" يعود إلى إحدى الفترات العصيبة في تاريخ الجزائر في تسعينيات القرن العشرين، وهي الفترة التي تصاعدت خلالها ظاهرة التطرف الديني، وأدّت إلى مقتل الآلاف من الجزائريين، والتي كان من مآسها بالنسبة لـ"أحمد" قتل خطيبته، الأمر الذي جعله يتأثر كثيراً، ليقرّر بعدها الرحيل عن بلده، ويعيش مُخفياً حقيقته، لقد أثرت هذه الواقعة بشكل كبير في نفسية "أميديو" وجعلته صامتاً لا يتكلم كثيراً لهول ما وقع لخطيبته، لذلك تسرّ عن كلّ ما يتعلّق بأصوله وبعائلته.

من خلال حديث "عبد الله بن قدور" يعود "عمارة لخص" إلى مرحلة هامّة من المراحل التي مرّت بها الجزائر، وفي الآن ذاته يسرد جزءاً من سيرته الذاتية، باعتبار أنّه كان أحد الفارين من بلده التي لم تعد رمزاً للبهجة والسّرور، بل كانت المآسي في كلّ مكان؛ مأساة قتل "بهجة" بالنسبة لـ"أحمد ساملي" ومآسي "البهجة" "العاصمة الجزائرية" التي عاشت أسوأ سنواتها عبر التاريخ. بالنسبة لـ"أحمد" وبالرغم من كلّ ما عاشه في الجزائر، فإنّه لم يسلم في روما كذلك من الاتهام بالقتل، يُضيف "بن قدور" «ألم تروا ماذا قالت الجرائد حول أحمد؟ حين اكتشفوا أنّه مهاجروليس إيطاليا، لم يتردّدوا في اتّهامه بالقتل»<sup>51</sup>. فالأتجار بالمخدرات والقتل هي تُهم جاهزة للمهاجرين في روما، ولا يمكنهم أن يُروا أسوأ، فغالبية الأوروبيين ينظرون إلى ما يقع في البلدان الإفريقية والعربية باعتباره إحدى نتائج خصوصيات الشعوب فيها، وهي نظرة مختزلة جدّاً ولا تُعبّر فعلاً عن حقيقة الأفارقة والعرب التي تختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً.

في الأخير تتضح حقيقة هوية "أميديو" من قبل ضابط الشرطة في روما المكلف بكشف ملبسات قضية القتل والذي أصرّ على اتّهامه، ولكنّه في نهاية المطاف - يصل إلى حقيقة لم

يكن يتوقعها حين يُكتَف من تحريّاته، فمنذ البداية كان الضابط يعتقد أن "أميديو" هو القاتل، بناء على عدّة قرائن لعلّ أهمّها اختفاؤه الغامض، ولكلّ هذا فإنّ القضية كانت - بالنّسبة له- مغلقة؛ فالقاتل هو "أحمد سالمي" الذي يدعوه الكلّ "أميديو"، بعد انكشاف حقيقة كونه مهاجرا جزائريّا ف«اختفاؤه المفاجئ يؤكّد تورّطه في قتل الشّاب لورينزو مانفريديني المدعو غلادياتور. على العموم القاتل يفرُّ»<sup>52</sup>. إنّ اختفاء "أميديو" دليل على تورّطه في الجريمة، لأنّ الفرار والهروب هو الحلّ الوحيد للنّجاة من ملاحقة الشّرطة في حالة ارتكاب الجريمة، بالإضافة إلى أنّ الضابط أخذ بعين الاعتبار ما حدث بين "أميديو" و"لورينزو" ليلة وقوع الجريمة، فحسب البحث تبين أنّ «شهودا رأوه يتشاجر مع الضحية ليلة الجريمة، لا أحد يعرف السّبب، وسمعه يصرخ في وجه الضّحية: "إذا كرّرت الأمر سأقتلك. بالنّسبة لي القضية انتهت. أميديو هو القاتل، وهذا يجعل منه شخصا مبحوثا عنه»<sup>53</sup>. وهو ما يدلّ -بالنّسبة للشّرطة- على تورّطه، إلّا أنّه اتّضح أن ما وقع بين بينهما كان بسبب مضايقته لسكّان الحي ولتحرّشه بإحدى ساكنات البناية، الأمر الذي أغضب أحمد وجعله يهدّد "لورينزو" بالقتل إن عاد إلى مثل تلك الأفعال .

كان "أميديو" هو القاتل حسب المحقّق بالرغم من شهادات جيرانه الطيّبة في حقّه، ومنه فهو يتساءل «إذا كان أميديو بريئا كما يرى كلّ جيرانه في البناية لماذا إذن لا يظهر ليدافع عن براءته؟ الأدلّة التي جمعناها من طرق مختلفة ومن جيرانه قوّت شكوكنا، وقادتنا إلى التّركيز حول فرضية تورّطه. وبعد ذلك عرفنا أنه مهاجر واسمه الحقيقي "أحمد سالمي". وكما قلت سابقا المنحرفون والمجرمون من عاداتهم تزوير هوياتهم. وهكذا وجدنا أنفسنا كمحقّقين، أمام تحديين؛ جمع الأدلّة التي تُثبت من جهة أن أميديو مهاجر، ومن جهة أخرى تلك التي تشهد تورّطه في الجريمة»<sup>54</sup>. اختفاء "أميديو" وعدم كشفه لهويته الحقيقية لكلّ من يعرفه هي من صفات المجرمين في رأي الشّرطة، ولذلك كان على الضّابط غلق قضية قتل "لورينزو" واتّهام "أميديو" ، والملاحظ أنّ التّحري حول شخصية أميديو الحقيقية سارت نحو إثبات أنّه كان مهاجرا ولم يكن إيطاليا من الجنوب، كما أوهم كلّ من عرفه في الحيّ، وهي تتساوى مع فكرة تورّطه في القتل بالنّسبة للمحقّق .

لكن، وبعد كلّ هذا، يعرف الضّابط "ماورو بيتاريني" أنّ "أميديو" كان موجودا في المستشفى في حالة غيبوبة بعد حادث وقع له قبل حصول عملية القتل، الأمر الذي أعاد

فتح القضية من جديد بالموازاة مع اتّضح أنّ مختطف كلب السيدة "فيانيلي" لم يكن سوى "لورينزو" واكتشف الضابط أنّ "لورينزو" كان يُنظّم مع أصدقائه مباراة بين الكلاب عادة ما تنتهي بموت أحدها، وهو سبب تسميته بـ"غلادياتور" وهو اسم كان يُطلق على المُصارعين في روما لعهد الإمبراطورية القديمة، وقد ساعد اكتشاف سبب تسميته كذلك للوصول إلى الحقيقة، حيث يذكر ضابط الشرطة، «لقد قُمنّا بالتحقيق لاكتشاف أصل هذا اللقب وسرّه. لورينزو كان يقوم بمراهنات في تنظيم قتال غير مصرّح به بين الكلاب، والذي ينتهي دائما، بموت أحدها. في عصر الرومان ، الغلادياتور كان سجيناً أو عبداً، يقاتل ضدّ حيوان شرس، أمام آلاف المتفرّجين في الكوليزي Colisée ، لورينزو وأصدقائه قاموا باختراع لعبة موت جديدة»<sup>55</sup>. وبانكشاف السرّ في تسمية "لورينزو" بالـ"غلادياتور" انكشفت معه الحقيقة حول اختطاف الكلب، وجريمة القتل التي حدثت، حيث إنّ «إليزابيتا فابياني" استطاعت أن تكشف صاحب اختطاف فالنتينو" وقرّرت الانتقام بشدّة بعد تأكّدها من التعذيب الشّديد البادية على كليها قبل موته»<sup>56</sup>. فالسيدة "فابياني" هي من قتل "لورينزو" انتقاماً منه لسرقته كليها، وبهذا اتّضح للجميع أنّ "أميديو" كان بريئاً.

خاتمة

إنّ رواية "عمارة لخصوص" ثريّة من حيث الأفكار والخيال، كما أنّها تحمل دلالات تناصية كثيرة، حيث يُشير عنوانها الأول باللّغة العربية إلى أسطورة رومانية قديمة، هي أسطورة الأخوين "روميلوس" و"ريموس" اللّذين اعتنت بهما الذئبة ، ولعلّه يقصد أنّ روما هي الذئبة التي كان "أحمد" يرضع حليها كي يُصبح ابناً لها، كما حصل لغيره من قبل، وكانت صديقتها "ستيفانيا" من خلال شخصيتها المتفهمّة والمتعايشة مع الأجنبي، تُمثّل ما يجب أن تكون عليه روما (الأمّ)، التي تجمع أبناءها بالرغم من اختلافهم وتعدّد هوياتهم وأصولهم المختلفة.

من خلال تغيير "أحمد سالمي" لاسمه، كان يحاول أن يفاوض على وضعه كمهاجر، حتى يتجنّب الوقوع تحت هيمنة سلطة المجتمع الإيطالي وعدائيته، حيث إنّ "التفاوض" من الاستراتيجيات التي يسلكها الآخر (العربي أو الرّنجي أو الآسيوي) في علاقته بالأنا(الأوروبي)، من أجل تحقيق القبول في المجتمعات الأوروبية، والحدّ من العدائية والرّفص، حيث إنّ «التفاوض هو أن يحاول المرء تعديل شيء فرض عليه لأنّه مُرغم على الإبقاء على تلك

البنى ولا يستطيع قطعها تماما. كما يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى رفض المنظرين مابعد الكولونياليين اتباع منهج تنظيري واحد حيث يتفاوضون مع عدد كبير جدًا من الأدوات المنهجية والنظرية الفلسفية، بحيث يكون التفاوض تأثرا ونقدا وإعادة تأهيل في الوقت ذاته»<sup>57</sup>. إن المهاجرين الذين يعيشون في أوروبا تباعدوا عن أصولهم، وأصبحوا يعيشون في بلد آخر مختلف عنهم اجتماعيا وفكريا وثقافيا، وفي مقابل أشكال التسلط والهيمنة والإقصاء الممارسة في حقهم، كان عليهم أن يفاوضوا على وضعهم الجديد في المجتمعات الأوروبية المضيفة، وهو ما برع "أحمد سالمي" في فعله حتى يتفادى رفض المجتمع الإيطالي.

ولكن، وبالرغم من كل هذا، فإن الرواية تُشير أيضا إلى صعوبات التعايش بين الثقافات، من خلال ما يذكره الكاتب من مشاعر الكراهية والتصرفات العنصرية التي يُقابل بها المهاجرون، حيث «كشفت البحث في رواية عمارة لخصوص...» كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك؟" عن عُسر الحوار الحضاري من خلال صوغ رواية النص ونسق الحوارية الباعث على فيض الدلالات، وأدغمت التحليل بثناء العتبات النصية والتمثيل الثقافي والرّمز وتعدّد الأصوات لإثارة أسئلة الحوار الحضاري الذي لا بدّ منه لوعي الذات والآخر ومجاوزة إكراهات التاريخ المريرة»<sup>58</sup>. وهي أهم ما يمكن الخلوص إليه من خلال قراءة هذه الرواية.

وفي الأخير، يُمكن القول إن الذي يقرأ رواية "صراع الحضارات حول مصعد بيتزا فيتوريو" لا يكتفي بالشعور بجمالياتها الفنية وعوالمها الخيالية وبراعتها التصويرية وبنيتها السردية فحسب، وإنما يرى أنّها تصوير دقيق لواقع المجتمعات الأوروبية، بتناولها لأهم القضايا المعاصرة، وهي تلك المتعلقة بقضايا الهويات المتنقلة، وضرورة بذل الكثير من الجهود الفردية والجماعية من أجل تحقيق التعايش الحضاري وسط المجتمعات الأوروبية، التي مازال متمركزة حول ذاتها، «فاللأوعي العنصري مازال قابعا في المجتمع الأبيض مهما تغيرت القوانين العنصرية إلى قوانين إنسانية تقوم على المساواة في الحقوق والواجبات»<sup>59</sup>. والنّتيجة المُستخلصة بعد قراءة هذه الرواية، هي أنّها تُعري تمركز الذات الأوروبية حول نفسها واستبعادها للآخر المختلف، كما أنّها تقوم كذلك على إبطال

مفهوم الهوية الثقافية الثابتة التي كشفها الشخصيات الرئيسية في الرواية، كما كشفها الحوار الذي كان يدور بين شخصياتها .

## الهوامش

\*- تعتمد هذه الدراسة على المفاهيم التي وظّفها "هومي بابا" في كتابه "موقع الثقافة" مثل "المفاوضة"، و"الهجنة" و"الوضع البيئي" و"العين الشّريرة".

\*\*- هذه الرواية في الأصل هي رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" والتي أعاد لخص كتابها بالإيطالية، ثم ترجمتها "إليز غريبو" إلى الفرنسية بعنوان "Choc des civilisations pour un ascenseur

Piazza Vittorio

<sup>1</sup>- محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996، ص 105

\*\*\* - بالرغم من أنّ الكاتب الجزائري "عمارة لخص" يكتب بالعربية والإيطالية إلا أنّ نصوصه الروائية كلّها تُرجمت إلى اللّغة الفرنسية، وتُحظى بمتابعة من قبل القارئ العربي والفرنسي على السّواء .

<sup>2</sup>- هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، ترجمة ثاندريه، المركز الثقافي العربي، بيروت الطبعة الأولى، 2006، ص 119

\*\*\*\* - يأتي تقديم السيرة الذاتية له في موقعه الخاص على الشبكة، كما يلي :

عمارة لخص من مواليد الجزائر العاصمة عام 1970، تخرّج من معهد الفلسفة بجامعة الجزائر. واصل دراسته وحصل على الدكتوراه من جامعة روما في الأنثروبولوجيا. يقيم في العاصمة الإيطالية منذ عام 1995. يكتب باللغتين العربية والإيطالية. نشر روايته الأولى "البق والقرصان" في طبعة مزدوجة اللّغة عربية إيطالية، (بترجمة فرانيسكو ليجو) في روما عام 1999. وصدرت روايته الثانية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" في الجزائر عام 2003 (منشورات الاختلاف) والطبعة الثانية في بيروت (بالاشتراك مع دار العربية للعلوم). أعاد كتابة هذه الرواية بالإيطالية وصدرت عن دار النشر E/O عام 2006 بعنوان آخر هو "صدام الحضارات حول مصعد في ساحة فيتوريو (Scontro di civiltà per un ascensore a piazza Vittorio) حيث نالت نجاحا كبيرا في إيطاليا وخارجها، إذ ترجمت من الإيطالية إلى الفرنسية والإنكليزية والهولندية والألمانية، وأخيرا إلى الكورية. كما تم تحويلها إلى فيلم سينمائي من إخراج إيزوتّا توزو، عرض في قاعات السينما الإيطالية هذا العام. حاز على جائزة فلايانو الأدبية الدولية عام 2006، إضافة إلى جائزة المكتبيين الجزائريين عام 2008. وصدرت "القاهرة الصغيرة" باللّغة الإيطالية في سبتمبر 2010 عن دار نشر E/O بعنوان مختلف هو "طلاق على الطّريقة الإسلامية في حي ماركوني (Divorzio all'islamica a viale Marconi) يُنظر <http://www.amaralakhous.com/biography-arabic>

<sup>3</sup>- عزيز نعمان، الحداثيّة ومابعد الحداثيّة في السرد الرّوائي، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، عدد 21

أكتوبر 2009، ص 13

<sup>4</sup>- عبد الله أبو هيف، صورة الآخر والحوار بين الحضارات في الرّواية العربية، مجلّة جامعة دمشق- المجلد 24

العدد الثالث+ الرابع 2008، ص 110

<sup>5</sup> - فاتن مرسي، مُتَع المنفى ومتاعبه في بعض أعمال إدوارد سعيد: الهوية والنقد الثقافي، في: ألف؛ مجلة البلاغة المقارنة: إدوارد سعيد والتقويض النقدي للاستعمار، عدد خاص عن إدوارد سعيد، العدد الخامس والعشرون، دارالبياس العصرية، القاهرة، 2005، ص 90

\*\*\*\*- هومي بابا(1950) أستاذ الأدب الإنكليزي والفن في جامعة شيكاغو وعضو الهيئة الاستشارية في معهد الفن المعاصر وعضو هيئة المدراء في المعهد الدولي للفنون البصرية وكلاهما في لندن مؤلف "موقع الثقافة" 1994 ومحرر "الأمّة والسرد" 1990 وكلاهما كان لهما نفوذ واسع ورفيع في تحديد ما تعنيه الدراسات الكولونيبالية والثقافية في رسم آفاق النظرية المعاصرة» يُنظر: هومي.ك. بابا، موقع الثقافة مقدّمة المترجم، ص 36. كما يمكن إضافة أنّه « وُلد بالهند وحصل على الليسانس من جامعة بومباي ثم أكمل تعليمه العالي في جامعة أوكسفورد. ولقد قام بالتدريس ستة عشر عاما في إنجلترا قبل انتقاله إلى الولايات المتّحدة في بداية الثمانينيات كأستاذ في اللسانيات والنقد الأدبي وهو يدرس بجامعةها إلى الآن» يُنظر: فاتن مرسي، متع المنفى ومتاعبه في بعض أعمال إدوارد سعيد: الهوية والنقد الثقافي، ألف؛ مجلة البلاغة المقارنة، إدوارد سعيد والتقويض النقدي للاستعمار عدد خاص عن إدوارد سعيد، هامش ص 100.

<sup>6</sup> - هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، مقدّمة المترجم، ص 24، ويشير إلى تيم وود، في "حوليات موقع الثقافة"

<sup>7</sup> - هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، مقدّمة المترجم، ص 9

<sup>8</sup> - هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، مدخل، ص 37

<sup>9</sup> - دوغلاس روبنسون، التّرجمة والإمبراطورية: نظريات الترجمة مابعد الكولونيبالية، ترجمة ثائر ديب، دار الفرقد، الطبعة الثانية 2009، ص 54

<sup>10</sup> - يُنظر: هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، هامش ص 107

<sup>11</sup> - هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، ص 116

<sup>12</sup> - هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، ص 136

\*\*\*\*\* اعتمدنا في صياغة هذا العنوان على المفاهيم التي بلورها "هومي بابا" في كتابه "موقع الثقافة".

<sup>13</sup> - مفهوم "البينية" يُشير إلى مفهوم التوسط وموقع الوسط بين ثقافتين، بمعنى "بين-بين" وهو مفهوم موجود في اللّغة العربية، استعمله ثائر ديب مترجم كتاب "موقع الثقافة" لهومي بابا « والسؤال هو كيف تُشكّل الدّوات "بينيا"؟ » يُنظر: هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، بيروت.الدار البيضاء. الطبعة الأولى. 2006، ص 39. حيث إنّ المهاجر يعيش في مهجره "وضعا بينيا" تباعد به عن أصوله، وجعله يقف في الوقت نفسه على مسافات من المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا بسبب أصوله الأجنبية.

<sup>14</sup> - يُنظر؛ Amara Lakhous, Choc des civilisations pour un ascenseur Piazza Vittorio

<sup>15</sup> - قلولي بن ساعد، اللّغة وتعدّد الأصوات في رواية "كيف ترضع من الذّئبة دون أن تعضك" مجلة الثقافة وزارة الثقافة الجزائر، عدد 19 أبريل 2009، ص 153

<sup>16</sup> Amara Lakhous, Choc des civilisations pour un ascenseur Piazza Vittorio, traduit de l'italien par Elise Gruau barzakh Alger 2008, p 22

- يُنظر؛<sup>17</sup> Amara Lakhous, Choc des civilisations pour un ascenseur Piazza Vittorio

<sup>18</sup>- أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنّوم، دار الحوار سوريّا،

الطبعة الأولى، 2007، ص 77

<sup>19</sup>- أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ص 77

<sup>20</sup>- عبد الله أبو هيف، صورة الآخر والحواريين الحضارات في الرواية العربية مجلّة جامعة دمشق- المجلد 24

العدد الثالث+ الرابع 2008، ص 115/114

<sup>21</sup>- Amara Lakhous, Choc des civilisations pour un ascenseur Piazza Vittorio, p 7

<sup>22</sup>- Idem .p13

<sup>23</sup>- هومي .ك. بابا، موقع الثقافة، مدخل، ص 47

<sup>24</sup>- Amara Lakhous . Op.cit. p 9

<sup>25</sup>- حسن حنفي حسنين، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2012، ص 23

<sup>26</sup>- Amara Lakhous . Op. cit . p 21 /22

<sup>27</sup>- Idem . p 34 / 36

<sup>28</sup>- Amara Lakhous , Op.cit . p 34 / 35

<sup>29</sup>- Idem . p 37/36

<sup>30</sup>- Idem . p 61

<sup>31</sup>- حسن حنفي حسنين، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة . مصر، 2012، ص 55

<sup>32</sup>- راسل جاكوبي، نهاية البيوتوبيا: السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة، ترجمة فاروق عبد القادر، عالم

المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت مطابع الوطن، الكويت 2001، ص 65

<sup>33</sup>- Amara Lakhous , Op.cit ,p 37

<sup>34</sup>- عبد الله أبو هيف، صورة الآخر والحواريين الحضارات في الرواية العربية، مجلّة جامعة دمشق، ص 124

<sup>35</sup>- Amara Lakhous, Op.cit ,p 46

<sup>36</sup>- Idem , p 47

<sup>37</sup>- Idem. p,79

<sup>38</sup>- Idem. P 81/80

<sup>39</sup>- Idem. p82

<sup>40</sup>- Idem. p 92

<sup>41</sup>- Idem . p 99

<sup>42</sup>- Idem .p 99 /100

<sup>43</sup>- Idem. p 100 /101 /103

<sup>44</sup>- Idem .p 102

<sup>45</sup>- Idem .p 115

<sup>46</sup>- Idem . p 115

- 47 - Idem . P 113  
48 -Idem. p115  
49 - Idem.p117  
50 - Idem. p 125 /126  
51- Idem. p129  
52-Idem. p137  
53 - Idem.p 140  
54 - Idem . p139  
55 - Idem .p 141  
56 -Idem ,p142

<sup>57</sup>- هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، مدخل، هوامش (المترجم)، ص 39

<sup>58</sup>- عبد الله أبوهيف، صورة الآخر والحواريين الحضارات، ص 107

<sup>59</sup>- حسن حنفي حسنين، الهوية، ص 56

